(محركات القلوب إلى تقوى الله تعالى)

من كتاب جُنَّة السالكين (103: 110)

للدكتور سلطان العميري

كل ما قيل في تعريف التقوى يذكر في حقيقتها فعل الأوامر وترك النواهي خشيةً واتقاءً ووقايةً، وهو مراعاة لأصل معنى التقوى في لغة العرب، ولكن هذا لا يعني أن تقوى الله منحصرة في هذا المحرك، فالمسلم يتقي الله لعدد من المعاني.

فالدارس لما يذكره العلماء عن مفهوم التقوى لا بد أن يكون منتبها لهذه المعاني وأن المسلم في تقواه الله تعالى لا يلتفت إلى طلب الثواب وخشية العقاب فقط وإنما هو مع ذلك يتلفت إلى حب الله تعالى وتعظيمه وإجلاله والخوف منه ورجائه. فالله تعالى يستحق أن يُتَّقى ويُعبد لكماله وجلاله وجبروته، وهو أهل أن يكون الذل والخضوع كله له وحده، والإنابة جميعها مصروفة إليه، كما أنه يستحق أن يُخشى ويتقى لما وعد به من الثواب والعقاب.

وقد نبه القرآن على هذا المعنى في قوله تعالى: {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [المدثر : ٥٦]، ومعناها أن الله تعالى يستحق أن يُخشى ويهاب ويُجلّ ويعظم في صدور عباده، لما يستحقه من الإجلال والإكرام، ولما يتصف به من صفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش وشدة البأس، وقد جاء في بعض الآثار: "لو لم أخلق جنة ولا نارًا، ألم أكن أهلا أن أعبد ؟!" **نقله السفاريني في لوامع الأنوار البهية (201/2)**

فمن أهم ما ينبغي أن يتعلمه المسلم عن مفهوم التقوى أن المحركات التي تدفع المسلم إلى الالتزام بتقوى الله وتؤسس هذا المعنى في قلبه كثيرة، **وأهمها:**

المحرك الأول: محبة الله تعالى، فالمسلم يطيع الله ويلتزم بفعل ما يحب وترك ما يكره لأنه يحب الله ويتعلق قلبه به والمحبة من أعظم ما يحرك القلوب إلى الأعمال، بل أصل كل حركة في الوجود، يقول ابن تيمية: «أصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والإرادة، فهو أصل كل فعل ومبدؤه، كما أن البغض والكراهة مانع وصاد لكل ما انعقد بسببه ومادته، فهو أصل كل ترك، إذا فسر الترك بالأمر الوجودي كما يفسره بذلك أكثر أهل النظر ... فالمحبة

والإرادة أصل في وجود البغض والكراهة، والأصل في زوال البغيض المكروه، فلا يوجد البغض إلا لمحبة، ولا يزول البغيض إلا لمحبة، فالمحبة أصل كل أمر موجود، وأصل دفع كل ما يطلب الوجود، ودفع ما يطلب الوجود أمر موجود، لكنه مانع من وجود ضده، فهو أصل كل موجود من بغيض ومانع ولوازمهما. قاعدة في المحبة (65 - 67)

وبواعث محبة الله في قلب المسلم لها أسباب كثيرة:

منها : الفطرة، فالله تعالى فطر الناس على أمور كثيرة، ومن أعظمها فطرتهم على محبّته والتعلق به، فكل إنسان مجبول على حب الله تعالى، والعبد لا يحتاج إلى دوافع تدفعه إلى تحقيق تلك المحبة في قلبه ، فقلب العبد مخلوق خلقة تقتضي أن يكون الله تعالى محبوبا عنده، ولا يخرج عن هذه المحبة إلا بتأثير المفسدات. انظر: مجموع الفتاوى(72/10)

ومنها: إدراك كمال الله وجلاله وجماله، فالنفوس البشرية مفطورة على حب الكمال، وكلما ازداد المسلم معرفةً بكمال الله وجماله ازداد له محبة وبه تعلقا، فمن أراد أن يزداد قدر المحبة في قلبه الله تعالى فليحرص على الازدياد من التعرف على الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله.

ومنها : إدراك إنعامه وإحسانه، فإن النفوس البشرية مجبولة على حب من يحسن إليها، والله تعالى هو المحسن بكل النعم، ونعمه سبحانه لا تحصى، {وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}، {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}، فهو سبحانه صاحب الإحسان المطلق، وهو المنعم الأعظم، وكلما ازداد المسلم إدراكا لنعم الله تعالى عليه ازداد له محبة وبه تعلقا. انظر: مجموع الفتاوى (84/10)

ومنها: إرسال الرسل، فالله تعالى يريد النجاة لعباده، ويريد لهم الخير والصلاح والفلاح، ولأجل هذا أرسل الرسل، وأنزل معهم الكتب، وأيدهم بالبراهين والبينات ليكون ذلك أدعى لقبولهم للحق وأخذهم به، فإدراك هذا المعنى يحرك القلب إلى محبة الله تعالى والتعلق به.

ومنها: موازين الحسنات والسيئات، فالله تعالى وضع موازين للحسنات والسيئات تدل دلالة ظاهرة على أنه يريد أن يرحم عباده، ويحقق لهم النجاة في الدنيا والآخرة، ويجعلهم من الفائزين بكرمه وجوده فكل من يدرك تلك الموازنين فإنه سيعلم علما قاطعا أنها موضوعة على الرحمة والكرم والجود

والعطاء، وبناء على تلك الموازين فإن كل من يدخل في المتاجرة مع الله فإنه سيكون فائزًا بأرباح عظيمة من العطاء والكرم، وسيأتي شرح مفصل لتلك الموازين بما يبهر العقول، ويجعل القلوب تمتلئ بمحبة الله والفرح به.

ومنها: إدراك عنايته بعباده، فالله تعالى حين خلق عباده لم يتركهم، وإنما اعتنى بهم وبما ينزل بهم من هموم وغموم وآلام، فالله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، ويطلب من عباده عرض همومهم وآلامهم عليه، ووعدهم بالاستجابة.

إن هذا الكرم الإلهي يفجر معاني الحب في القلوب، ويغرقها في بحار من التعظيم والإجلال له سبحانه.

ومنها : حفظ الله لعباده، فالله تعالى وكل بعباده ملائكة يحفظونهم ويحمونهم من طوارق الليل والنهار، كما قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [الرعد: ١١]، وهذا الحفظ يبعث في القلب أمواج المحبة والتعظيم الله تعالى.

ومنها: صبره وحلمه على عباده، فالناس يعصون الله ويقعون فيما يغضبه سبحانه ومع ذلك فهو الله لا يعاجلهم بالعقوبة، وإنما يمهلهم ويحلم عليهم، وزيادة على ذلك يرزقهم ويعافيهم ، يقول النبي ﷺ: "ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم". رواه البخاري (6099)

فكثير من العباد لم ينصفوا الله تعالى، فهو سبحانه يتحبب إليهم بالنعم وهو يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم نازل وشرهم إليه صاعد، هو الذي خلق سبحانه ثم يُعبد غيره، وهو الذي أنعم سبحانه بكل النعم ثم يشكر غيره.

ويقول الله تعالى: { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ } [الرعد: ٦]، أي: لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شرهم وعصيانهم إليه صاعدًا. يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويُجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم؛ لأنه يحبّ التوابين ويحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعايب. انظر: تيسير الكريم الرحمن السعدي(413)

ومنها: إدراك أثر محبة الله للعبد، فالله تعالى إذا أحب عبدا أكرمه وشرفه، وذكر اسمه في الملأ الأعلى، وإدراك المسلم لهذا المعنى من أقوى ما يجعل قلبه يمتلئ بمحبة الله وتعظيمه؛ لأن الله تعالى العظيم ليس في حاجة إلى عبده، ومع ذلك فهو إذا أحب عبدا أكرمه وذكر اسمه في الملأ الأعلى، يقول ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحبّ فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض». رواه البخاري (7458)

المحرك الثاني: الخوف من الله، فالمسلم يطيع الله تعالى ويلتزم بفعل ما يجب وترك ما يكره لأنه يخاف من الله تعالى، وتحقق الخوف من الله في نفس المسلم له موجبات، ونشأته في قلبه لها أسباب:

منها : استحضار عظمة الله سبحانه، فالمسلم يخاف الله تعالى؛ لعظمته وجبروته وكماله الذي لا يمكن الإحاطة به.

ومنها: خوف عدم القبول، فالمسلم يخاف من الله ؛ لأنه يخشى ألا يكون مقبولا عنده سبحانه، فيقع في الخسران المبين.

ومنها: التقصير في حقه سبحانه، فالمسلم يخاف الله؛ لأنه يخشى أن يكون مقصرًا في حقه ومتصفا بما لا يليق بمقام الله تعالى، والتقصير في حق العظيم أمر عظيم.

ومنها: الخوف من تقليب القلب، وانصرافه عن عبادة الله تعالى، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، وذكر أن سبب إكثاره من هذا الدعاء أن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء. رواه أحمد (24604)، والترمذي (2140)، وقال: حديث حسن صحيح.

ومنها: الخوف من الوقوف بين يدي الله تعالى، فهذا الموقف من أعظم ما يوجب الخوف في قلوب المحبين، فالوقوف بين يدي المحبوب العظيم شديد.

ومنها: خوف فوات الثواب، فالمسلم إذا تذكر عظمة الثواب الذي وعد الله به عباده، وأعظمه لذة النظر إلى وجهه الكريم، ينشأ الخوف في قلبه أن يفوته هذا النعيم العظيم وهذا الفضل الكبير، فالخوف من فوات النعيم العظيم شديد

جدا على النفس، فإن المحب إذا تذكر ولو لحظة واحدة أنه يمكن ألا يلقى محبوبه يكاد قلبه يتقطع من الخوف والوجل من هذا الحرمان.

ومنها: خوف العقاب، فالمسلم يخاف من الله تعالى؛ لأنه يخشى أن يعاقبه على ذنوبه ومعاصيه، وعقاب العظيم شديد ولو كان قليلا.

وقد جاء في كلام عدد من السلف الإشارة إلى تلك البواعث، يقول الجنيد: "ما كان العبد أعلم بالله كان له أشدَّ خوفًا، والخائفون على طبقات: خائف من الإجرام، وخائف من الحسنات أن لا تقبل، وخائف من العواقب" شعب الإيمان، **شعب الإيمان البيهقي (٢/ ٢٥٦).**

ويقول عطاء الخفاف: "ما لقيت سفيان إلا باكيا، فقلت: ما شأنك؟ قال: أتخوف أن أكون في أم الكتاب شقيا". **حلية الأولياء، أبو نعيم (51/7) ، وسير أعلام النبلاء (266/7).**
وعن قيس بن مسلم قال: كان الضحاك إذا أمسى بكي، فيقال له، فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي. **الرقة والبكاء، ابن أبي الدنيا (143).**

ورُوي أنَّ حذيفة المرعشي نظر إلى رجل وهو يبكي، فقال: ما يبكيك يا فتى؟ قال: ذكرت ذنوبا سلفت فبكيت، قال: فبكى حذيفة ثم قال : نعم يا أخي، فلمثل الذنوب فليبك، ثم أخذ بيده فتنحيا، فجعلا يبكيان. **المصدر السابق (143)**

يقول ابن حجر: العبد إن كان مستقيما فخوفه من سوء العاقبة، لقوله تعالى: {يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}، أو نقصان الدرجة بالنسبة **ـ كذا العبارة في المصدر، ولم تتوجه لي، ولعل هنا سقطا أو تصحيفا ـ** ، وإن كان مائلاً فخوفه من سوء فعله، وينفعه ذلك مع الندم والإقلاع، فإن الخوف ينشأ من معرفة قبح الجناية، والتصديق بالوعيد عليها، وأن يحرم التوبة أو لا يكون ممن شاء الله أن يغفر له، فهو مشفق من ذنبه، طالب من ربه أن يدخله فيمن يغفر له. **فتح الباري (313/11)**

المحرك الثالث: الرجاء من الله، فالمسلم يطيع الله تعالى ويلتزم بما يحب وترك ما يكره؛ لأنه يرجو من الله تعالى أن يدخله الجنّة على طاعته، ويعصمه من دخول النار بترك معصيته.

ومن أعظم ما يثير الرجاء في قلب المسلم ويقويه علمه بوعد الله تعالى لعباده المؤمنين، وسعة رحمته بمن زلّت به قدمه منهم، يقول ابن مسعود : «ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر » **حسن الظن بالله، ابن أبي الدنيا (66).**

ويقول سفيان الثوري: "ما أحب أن حسابي جعل إلى والدي ربي خيرٌ لي من والدي" حسن الظن بالله، ابن أبي الدنيا (37).

ومرض أعرابي، فقيل له : إنك تموت، قال: وأين أذهب ؟ قالوا : إلى الله ، قال : فما كراهتي أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه. المصدر السابق (40)

فهذه المحركات من أهم ما يجب على المسلم أن يستحضره أثناء عبادته الله ، فإنها تعطي للعبادة روحًا وجمالا ، وتجعل لها أثرا عميقا في نفس المسلم.

وهذه المحركات هي المحركات الشرعية الصحيحة التي ينبغي أن يسلكها المسلم في مسيره إلى الله تعالى، وهي تختلف اختلافا بينا عن المحركات التي يعتمد عليها أصحاب المناهج البعيدة عن الكتاب والسنة، فتراهم يعتمدون في تحريك قلوبهم على القصائد والأناشيد والرقص والتمايل وغيرها من الأمور المنحرفة.

●●●═══ ✿ ═══ ●●●

تحريرات عقدية https://t.me/tahrirateaqdia